قضايا التمثيل والغيرية الثقافية وصور الآخر

- تزفيتان تودوروف نموذجا -

د. رشيد وديجى

الكلية المتعددة التخصصات
الرشيدية- المغرب -

الملخَّص:

ينطلق البحث من فرضية أن الاهتمام بقضايا التمثيل، والغيرية الثقافية، وصور الآخر شكل منعطفا ثقافيا جديدا، يستند فيه "تودوروف" إلى التاريخ وتحليل الخطاب والاستراتيجيات التي ينتج بها معناه، من أجل تمثل إيديولوجية العصر، وذلك في إطار رهان تنويري يسعى إلى المساهمة في فهم مشاكل الحاضر، في سياق مشروع تاريخي يؤكد على أهمية الوعي التاريخي

Resume

Il débute la recherche de la prémisse que les questions de représentation, et altérité culturelle, et les autres images forment un nouveau tournant culturel, qui est basé sur "Todorov" à l'histoire et l'analyse du discours et des stratégies qui produisent les moyens, afin de représenter l'idéologie de l'époque, dans le cadre d'un instructif pari cherche à contribuer à la compréhension de la problèmes du présent, dans le cadre d'un projet historique souligne l'importance de la conscience historique dans la pratique de la théorie.

شكلت كتابات تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov في مرحلة "ما بعد البنيوية"؛ المنصبة على إعادة قراءة الثقافة الغربية من منظور يتسم بالمراجعة والنقد، وفي طليعتها كتاباه : "فتح أمريكا، مسألة الآخر"[1] La Conquête de l'Amérique : Question de l'autre ، و"نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري"[2] :

Nous et les autres, La réflexion française sur la diversité humaine،

المنتميان إلى مجال "تاريخ الفكر" منظورا إليه من زاوية "فكر الاختلاف" الذي يقوم بنقد أوهام المركزية العرقية والثقافية في السياق الثقافي الغربي منطلقه وغايته.[3]

ففيما يخص كتاب "فتح أمريكا" فيتكون عنوانه من شقين يحكيان الكتاب كله، ف"فتح أمريكا" موضوع الكتاب، بينما "مسألة الآخر" هي قضيته. يقول تودوروف في أول سطور الكتاب: «أود الحديث عن اكتشاف الأنا للآخر، والموضوع واسع وكبير» [4]؛ فلذا «ومن بين القصص الكثيرة المتاحة لنا، اخترت واحدة: قصة اكتشاف وفتح أمريكا». [5]

إذن، الكتاب ليس سردا تاريخيا لقصة الاكتشاف والفتح، بل الكتاب هو قراءة تزفيتان تودوروف، الفيلسوف الفرنسي من أصل بلغاري لهذا الفتح، قراءة فيلسوف مهتم بنظرية الأدب والثقافة وتاريخ الفكر، لذا نرى أنه يركز على نظرة "كريستوف كولومبوس" Christophe Colomb للهنود وملاحظاته عنهم، كما يركز على شخصية "موكتيزوما" Moctezuma إمبراطور الأزتيك، وشخصية "كورتيس"Cortés فاتح هذه الإمبراطورية.

إن ما يجذب تودوروف في اكتشاف أمريكا، هو تلك العلاقة التي تنشأ بين الأنا والآخر، بين "كورتيس" و"موكتيزوما" ، وبين "كورتيس" والأزتيك، ولذلك كان الكتاب يبحث في مسائل الذات والآخر، والخطاب والاتصال والعلامات، وكل هذه المسائل من خلال فتح أمريكا.

انطلقت قراءته لمسألة الآخر في فتح أمريكا من تحليل موضوعي للنصوص التي تركها المكتشفون والغزاة الأوائل للقارة الأمريكية، كرسائل كولومبوس إلى ملكي إسبانيا في تلك الفترة "إيزابيلا وزوجها فرديناند" Isabelle et Ferdinand ومذكراته ويومياته، وكذلك رسائل كورتيس ومذكراته، بالإضافة إلى مؤلفات مختلفة مثلت المواقف المسيحية المتطرفة

من الهنود الحمر باتجاهيها السلبي والإيجابي كمؤلفات الأب "لاس كاساس" Las Casas و"ساهوجان" Sahagun اللذين مثلا الرؤية المتعاطفة عموما مع الآخرين من الهنود الحمر.

فالأول، أكد تودوروف بأن مواقفه لم تكن منطلقة من احترام الآخر بوصفه آخر بل انطلقت من رؤيته المسيحية الأحادية،فهذا«الآخر مقبول بوصفه يتضمن مجرد إمكانية أن يصير مسيحيا». (6)

أما الثاني، فقد حرص على تنحية مواقفه الأخلاقية والمسيحية عن عرضه لمجمل «الحوادث والوقائع التي تضمنها مؤلفه الكبير عن شعوب القارة الأمريكية». (7)

وتطرق تودوروف بالمقابل للمواقف المعادية المتطرفة التي مثلتها رؤى شديدة التزمت للأبعاد العرقية والقومية والمسيحية في الثقافة الأوروبية،كمؤلفات"سيبولبيدا" (8)التي افتتحت العصر الاستعماري، وأسست لفكرة الاستعمار القائمة في جانب رئيس منها على قهر الآخر وإذلاله، ثم إلغائه إلغاء كليا، وساعد ذلك ما قام به حكام إسبانيا من منع انتشار المؤلفات ذات الطبيعة المتعاطفة مع الهنود الحمر.

والمؤلف على وعيه بشناعة ما كان، وبتمثله للحضارة المغلوبة تمثلا متعاطفا، إلاّ أنه لم يقتصر على موقف الإدانة الذي استهل به الكتاب، وإنما تساءل: «كيف تم هذا الإنجاز الجهنمي؟ كيف يمكن أن تغلب فئة ما هذا المجتمع الآخر الراسخ بحضارته الثرية والمعقدة كما كان في المكسيك؟». (9)

الكتاب، إذن، يطمح إلى كشف المستتر والمسكوت عنه في فتح أمريكا كشفًا علميا دقيقًا تفصيليا، وذلك بتشريح عملية الإزاحة والهيمنة كي لا تتكرر ولا يعيد التاريخ نفسه، وكي يتعلم المغلوبون مقاومة تفكيكهم وسحقهم، كما يتكشف للعالم ثمن الغزوة الأمريكية.

بعبارة أخرى، يدرس علاقة "كولومبوس" بالعلامات، واللغات، وبلغات الآخرين، بصورة خاصة؛ كما يدرس آخر هو "موكتيزوما" والعلامات، وآخر أيضا : "كورتيس" والعلامات، وتودوروف يقول عن عمله بأن: «هذا البحث الأخلاقي هو تأمل في العلامات، والتأويل، والاتصال: إذ لا يمكن تصور علم العلامات خارج العلاقة مع الآخر». (10)إن المقارنة بين ثقافة الإسبان، وثقافة الهنود ليست جديدة. يهدف إسهام تودوروف إلى توسيع هذه المقارنة إلى مجال العلامات والاتصال .

إن الاختلاف الأساسي الذي يراه تودوروف بين العلامات عند الإسبان، والعلامات عند الهنود هو أنه، تحقق قيام «شكلين رئيسيين للاتصال، أولهما بين الإنسان والإنسان وثانيهما بين الإنسان والعالم، ثم الإشارة عندئذ إلى أن الهنود ينمون بشكل رئيسي الشكل الأخير بينما ينمي الإسبان الشكل الأول» (11)، وهذا ما يفسره تودوروف أولا كاختلاف بين نموذجين من الحوار «إننا معتادون على عدم تصور الاتصال إلا على أنه بين البشر، لأنه، مادام العالم ليس ذاتا، فإن حوارنا معه هو حوار لا متماثل إلى حد بعيد (إن كان أي حوار كهذا على الإطلاق). إلا أنه ربما تكون هذه نظرة ضيقة إلى الأمور، ومسؤولة، علاوة على ذلك، عن شعورنا بالتفوق في هذا الصدد. والحال أن هذا النوع الثاني هو الذي يلعب دورا مهيمنا في حياة الإنسان المنتمي إلى الأزتيك، والذي يؤول ما هو إلهي وطبيعي واجتماعي من خلال العلامات والنذور، وبمساعدة ذلك المحترف الذي هو الكاهن–العراف». (12)

يميل هذا الاختلاف بين تصور الإسبان للعلامات، وتصور الهنود لها إلى صالح الإسبان. ويرى تودوروف في ذلك سبب خسارة الهنود حيث «كل شيء يحدث كما لو كانت العلامات، بالنسبة للأزتيك، تنبثق بشكل أتوماتيكي وضروري من العالم الذي تشير إليه بدلا من أن تكون سلاحا موجها إلى التلاعب بالآخر ». (13)

وإذا كان الإسبان متفوقين، بصورة واضحة لا تقبل الجدال، على الهنود في مجال الاتصال بين البشر؛ فإنه ليس هناك، بالنسبة لتودوروف، إلا شكل واحد من الاتصال «الإنسان بحاجة إلى الاتصال مع البشر[...] ولقاء الهنود مع الإسبان هو لقاء بشري بادئ ذي بدء؛ وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن المتخصصين في الاتصال البشري يفوزون فيه. لكن هذا الفوز، الذي ننشأ عنه كلنا، سواء أكنا أوروبيين أم أمريكيين، يوجه في الوقت نفسه ضربة جسيمة إلى قدرتنا على الشعور بالانسجام مع العالم، وعلى الانتماء إلى نظام قائم سلفا؛ ويتمثل أثره في الكتاب العميق لاتصال الإنسان مع العالم، وإنتاجه وهم أن كل اتصال هو اتصال بين البشر». (14)

إن الجانب العلامي في فتح أمريكا يتمثل في "تصور الإسبان عن الهنود"، إذ يتألف هذا التصور من علامات مثل «وجود السيكلوبات (مارد أسطوري بعين واحدة) والأمازونيات

(شعب أسطوري من النساء المحاربات) والحوريات والبشر ذوي الذيول وبشر برؤوس كلاب». [15]

ولم «ينتصر كولومبس فاتح أمريكا على الهنود بالجيش، بل بالعلامات، عندما قام بتعطيل منظومة التواصل بينهم وبين العالم، خاصة في مواجهتهم الغزاة، حين عطّل منظومة تواصلهم مع الآلهة التي بدت خرساء بكماء» [16]. وقد فسر تودوروف ذلك حين بيَّن أن مجتمع الهنود محكوم بمنظومة علامات عناصرها كهنة وعرافون تعدهم مدارس خاصة، ويتولون معرفة المستقبل عبر الاتصال مع العالم. «فتاريخ المجتمع الهندي (الأزتيكي) يتألف من نبوءات، حتى كأن الحدث لا يمكن أن يقع ما لم يتم الإنباء عنه، ولا يتحول إلى فعل إلا ما كان كلمة، و لا يقاوم الهنود المصير الذي تمَّ التنبؤ به، فالنبوءة عندهم قانون يسعون إلى تحقيقه، إذ إنه عالم سيميائي جبريٌّ محكوم بالطقوس» [17]. إنها سيمياء تحذف دور البشر. وقد استوعب كورتيس فاتح المكسيك المنظومة العلامية التي تتحكم بالسلوك السيميائي لدى الهنود . وأيقن أن الغزو السيميائي كاف لسقوط الإمبراطورية الأزتيكية فجعل من السيمياء سلطة تفهم الهنود، وحول علاقته بالخطاب إلى رموز، واهتم بالدلالات التي ستنقلها إليهم.

ومن الأمثلة البارزة التي يسوقها تودوروف في هذا الإطار أن الهنود، مثلاً، «لا يعرفون الحصان، ولم يسبق لهم أن تعرفوا عليه، وكانوا على يقين أن خيول الإسبان لا تموت، لذا كان "كورتيس" يحرص دائماً على دفن الخيول الميتة بصورة سريعة وشديدة السرية. وكان يلجأ دوماً إلى إخفاء مصادر معلوماته كي يوهم الهنود بأنها مصادر غير بشرية بل قوى خارقة»[18]. وكان يكثر من استخدام اللغة السيميائية الطقسية، أي لغة «الرموز الهندية فينظم استعراضات الصوت والضوء والخيول والمدافع، ويصنع منجنيقاً لم يكن لاستعماله أية فعالية عسكرية، بل كان ذا فعالية سيميائية» [19]. كما شارك في حياكة أسطورة عودة "كيتزالكواتل" التي تقول علاماتها السيميائية إن«الإسبان رسل الآلهة، حتى صار الإمبراطور المكسيكي "موكيتزوما" نفسه ينظر إلى "كورتيس" على أنه "كيتزالكواتل" العائد لاسترداد مملكته، وأن الإسبان قدر إلهي لا مفر منه». [20]

وهكذا كفل "كورتيس" سيطرته على إمبراطورية الأزتيك بفضل براعته الفائقة في استخدام علامات البشر، وهو ما عبر عنه الاستشراق بارتباط التصور عن الآخر باللعب به سيميائياً.

وبالمقابل عجز "موكيتزوما" عن قراءة البيض من الناحية العلاماتية قراءة صحيحة، رغم كثرة الجواسيس الذين كان يرسلهم لمراقبة الغزاة الجدد ونقل أخبارهم، ومعظم السبب يرتد إلى أنه كان يملك تصورات مسبقة عن خصومه، ورأى في تغييرها والحيد عنها نوعا من الكفر الذي يغضب الآلهة.

ولم يكن الجيش الإسباني قادرا على احتلال المكسيك المحصنة تحصينا ممتازا، لو لم يستطع "كورتيس" أن يقرأ (علامات الآخر) بشكل أفضل مما فعل ذلك الآخر مع (علامات الإسبان). وكأن المعركة كانت معركة تأويل وقدرة على قراءة مختلف أشكال العلامات وتأويل مختلف أشكال دلالاتها. لقد حاول الهنود الحمر وملكهم "موكتيزوما" قراءة علامات الخصم في سبيل الوصول إلى حقيقته، وحقيقة قوته، ولكن يبدو أن كورتيس الإسباني استطاع أن يقرأ علاماتهم قراءة أفضل من تلك التي مارسها الهنود الحمر، وحرص فوق ذلك على أن تؤدي قراءة الآخر لعلامات الأنا إلى بلبلته وإرباكه، بسبب القراءة الخاطئة لهذه العلامات.

ومثلما أنه يجب التمييز جيدا داخل المجتمعين بين تصرفات مختلفة، فإن تودرورف يقترح، لهذا ثلاثة محاور لمعرفة الآخر «فهناك، أولا، حكم قيمة (مستوى قيمي) : فالآخر سيء، أحبه أو لا أحبه، [...] ، وهناك ثانيا، فعل التقارب أو فعل التباعد في العلاقة مع الآخر (مستوى عملي) : فأنا أتبنى قيم الآخر، أو أتوحد معه؛ أو أشبه الآخر بنفسي، وأفرض عليه صورتي الخاصة؛ كما أن بين الخضوع للآخر وإخضاع الآخر حد ثالث أيضا، هو الحياد، أو اللامبالاة. وثالثا، فإنني أعرف أو أجهل هوية الآخر (سيكون ذلك هو المستوى المعرفي)». (21)

ويشير تودوروف إلى أن هذه المحاور الثلاثة محاور مستقلة، بينها «علاقة تداخل، ولا توجد بينها أية علاقة تضمينية أو تراتبية» (22)، فمعرفة الآخر لا تقود بالضرورة إلى حبه، فالمعرفة لا تتضمن الحب، ولا العكس كذلك، كما أن إخضاع الآخر لا يتضمن الحب أو الكره، فالذات قد تخضع من تحبه ومن لا تحبه، من تعرفه ومن لا تعرفه معرفة جيدة.وقد

كانت الآثار الناجمة عن سوء الإدراك الحادث عن المحاور الثلاثة وخيمة في التاريخ الإنساني.

تحدّث تودوروف في (فتح أمريكا) عن علامات الآخر، التي كان إتقانُ قراءتها سبباً مركزياً، في إنجاز الانتصا ر الأوروبي على الهنود الحمر عند اكتشاف القارة، إذ أتقن الأوربيون قراءةَ علامات سكان المكسيك الأصليين (الأزتيك) الذين فشلوا في قراءة علامات الأوروبيين، وكان فشلهم هذا سبباً أساساً، في هزيمة جيشهم رغم تفوقه المطلق.

إذن، فقد حاول تودوروف استنطاق النصوص المكتوبة للكشف عن النسق السيميوطيقي المضمر والممحو عند القاهرين والمقهورين، وكذلك ليستشف من وراء إيديولولوجيا القاهر ونصوصه رؤية القاهرين، ومنظورهم للعالم، وأنساق علاماتهم، وأنظمة التبادل عندهم. على عكس «ما روجته الحضارة الغربية، والكشف أن حضارة الآخر، حضارة السكان الأصليين، لم تكن أكثر غنى من حضارة القادمين إليها ولكنها حضارة عاكفة على الذات تهتم بالشعائرية الشكلية أكثر من اهتمامها بالتواصل الحي، أضعفتها التناحرات الداخلية والانقسامات في الذات الجماعية» [23]، مما أدى إلى وجود ثغرات سمحت بالولوج الإسباني إلى داخلها.واضح كذلك في تشريحه لفتح أمريكا، «أنه ليس انتصارا عسكريا أو اختراقًا اقتصاديا فحسب، بل هو صراع حضاري تلعب اللغة بمفهومها السيميوطيقي»[24] دورا هاما فيه.

إن هذه اللحظة المغيرة عند تودوروف ليست لحظة سحرية، بل هي لحظة وعي جماعي يدرك آليات الاستعمار وميكانيزمات قهر الآخر، ويبدع مواجهة مناسبة تتلاءم مع نوعية الهجمة وضراوتها.

إضافة إلى ما تقدم، فقد عمق تودوروف نظرته حول حوار الثقافات وبصورة خاصة، حول "التنوع البشري" و"تنوع الشعوب" من خلال التفكير في تاريخ الفكر الفرنسي من بداية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين، ولا يهدف هذا التاريخ إلى أن يكون تاريخا للأفكار لأنه غير معروف: «إن خصوصية الفكر في أنه يصدر عن ذات فردية، ولا أن يكون تاريخا للمؤلفات، لأنه يهتم بوصف وبتأويل النصوص الخاصة» [25]، إنما يكون حوارا مع نحو

خمسة عشر مفكرا فرنسيا. إنه « "نحن والآخرون"، " "نحن" مجموعتي الثقافية والاجتماعية، و"الآخرون" أولئك الذين لا ينتمون إلى مجموعتي». (26)

نجد على امتداد عناوين فصول هذا الكتاب، مسألة العلاقة بين "العام والخاص"، و"الشمولي والنسبي"، "العام عبر الخاص"، و"إنسان أم مواطن"، و"فرنسا والكون "،" القومية مقابل الإنسية"، و"النسبي والمطلق"، و"الاطراد والتعددية"...النهاية المؤقتة هي"الإنسية المعتدلة" .

يشير تودوروف، في افتتاحية القسم الأول من "نحن و الآخرون" إلى منظورين يمكن من خلالهما رصد التنوع البشري، يتعلق الأمر، بالنسبة إلى " المنظور الأول، التنوع هو تنوع الكائنات البشرية نفسها؛ يراد إذ ذاك معرفة ما إذا كنا نشكل نوعا واحدا أو عدة أنواع (في القرن الثامن عشر كان الجدل يدور حول "وحدة الأصل" أو "تعدد الأصول")؛ و بفرض أن النوع واحد فما هو مدى الفروق بين المجموعات البشرية. إنها بتعبير آخر، مسألة الوحدة والتنوع البشريين.

أما المنظور الثاني، الذي بدأ به تودوروف، فيطرح سؤال القيم : «هل هناك من قيم شمولية تنطبق على شعوب الأرض، أم أن القيم والمعايير مسألة نسبية تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات البشرية ؟ وإذا قلنا بوجود قيم كونية ومشتركة لدى جميع البشر، فما هي هذه القيم ؟هل هي قيم الحضارة الأوروبية التي حاولت أن تفرضها على جميع شعوب الأرض عن طريق الاستعمار؟». (27)

حاول تودوروف الإجابة عن هذا السؤال: شمولية القيم أو نسبيتها، عن طريق استجواب خمسة عشر مفكرا فرنسيا .

إن معظم الكتاب الذين يستعرضهم يمرون من مراحل متناقضة خلال مسيرتهم، فأحيانا يميلون إلى أطروحة تفوق الرجل الأوروبي على شعوب الأرض، وأحيانا أخرى يميلون إلى أطروحة المساواة بين الثقافات والشعوب.

ففي الموقف الأول، يسقطون فيما يسميه تودوروف بالشمولية، أي شمولية القيم الحضارية الأوروبية، وضرورة تطبيقها على كل شعوب الأرض، ولهذه الحالة سلبيات وإيجابيات. فمن إيجابياتها أنها ساعدت على ظهور حقوق الانسان. ومن سلبياتها أنها أدت

خلال مرحلة الاستعمار إلى الوقوع في براثين العنصرية المركزية الأوروبية التي حاولت أن تفرض على كل عادات وتقاليد الإنسان الآخر، ومحو ثقافته ولغته ودينه.

وأما الموقف الثاني، موقف النسبية، أي الذين يقولون بأنه لا يمكننا أن نحكم على تقاليد وعادات وقيم شعب ما من خلال معايير وقيم شعب آخر. فالقيم والعادات تختلف متغيرة من ثقافة إلى أخرى. والميزة الإيجابية لأصحاب الموقف النسبي هو اعترافهم بالتعددية والمساواة.

لكن من جهة أخرى، يرى أن أتباع النسبية الذين يعترفون بأحقية الاختلاف في القيم والعادات بين الثقافات والشعوب قد يخفون ضمنيا موقفا عنصريا. أي أنهم يطابقون أحيانا بين الاختلاف وبين الاستعلاء والدونية .

ومن أمثلة ذلك حسب تودوروف، الفيلسوف الفرنسي "إرنست رينان" Ernest Renan الذي انتقل من موقف التسامح إلى الموقف العلموي الوضعي الضيق الذي يقول بتفوق الحضارة الأوروبية على كل الحضارات البشرية الأخرى. يقول : « صنعت الطبيعة عرق عمال، وهو العرق الصيني[...] عرق عمال في الأرض، هو الزنجي[...] ، عرق سادة وجنود وهو العرق الأوروبي» [28]، هذا ما أسس فلسفة الاستعمار وبرر الحملات الاستعمارية الأوروبية، فقد أصبح من واجب أوروبا أن تقوم بتحضير كل شعوب الأرض طوعا أو كرها لأن مسيرة التقدم تفرض عليها إخراج البرابرة من همجيتهم وإدخالهم إلى نور الحضارة الأوروبية.

أما "فولتير"Voltaire، فلا يتردد في «تشبيه السود بالقردة، ويعتبر أن المسافة بينهم وبين العرق الأوروبي الأبيض أكبر من المسافة بينهم وبين القردة». [29]

وأما "توكفيل"Tocqueville، فإنه يدين «استئصال الهنود الحمر في أمريكا» [30]، ولكنه يبرر عملية استعمار الجزائر من قبل فرنسا. فعندما تكون المصالح الفرنسية معنية، فإنه لا يتردد في الوقوف إلى صالح فرنسا أيا كانت الأسباب. يقول : «لا يمكن دراسة الشعوب البربرية إلا والسلاح في اليد». [31]

أما أتباع النسبية، الذين يخفون ضمنيا موقفا عنصريا في أعمالهم، فنجد، من بينهم، "كلود ليفي ستروس" الذي لم يؤمن بالاختلاف في العادات و القيم بين الشعوب، إلا لكي يؤكد على فكرتين أساسيتين : «أولا عدم المزج بين الثقافات المختلفة و عدم التلاقح بين

تقاليد الشعوب، لأن ذلك يفقدها خصوصيتها» [32]، وثانيا «احترام ثقافات الشعوب البدائية التي يدرسها الإتنولوجي».[33] ولكن هذا الاحترام يخفي ضمنيا تفوق القيم الأوروبية على قيم الشعوب الأخرى.

هناك شخصان فقط ينالان إعجاب تودوروف : "مونتسكيو" Montesquieu، و"جان جاك روسو" Jean-Jacques Rousseau، فكلاهما يستوعب اختلاف الشعوب الأخرى غير الأوروبية، ويفهم عاداتها وقيمها بطريقة إنسانية لا عنصرية، دون التخلي عن المبادئ الشمولية التي تشكل جوهر عصر الأنوار.

ويرى تودوروف أنه «لا يمكن اتهام عصر الأنوار وتحميله مسؤولية المجازر الوحشية التي قام بها الغرب، أثناء المرحلة الاستعمارية باسم قيمه. فقد حرف المستعمرون مبادئ عصر الأنوار عن مسارها، وتم استخدامها كأداة لعملية الهيمنة». [34]

والحل لا يكون برفض المبادئ، وإنما بالعودة إلى الجذور الصحيحة التي أسست هذه المبادئ، ويدعو تودوروف، بهذا الصدد، إلى تأسيس فلسفة "إنسية جديدة" يدعوها «إنسية معتدلة» [35] تكون أكثر استيعابا وانفتاحا من الإنسية الأوروبية السابقة. وهذه الإنسية هي القادرة على إنقاذ جوهر الفكر الأوروبي المتولد عن عصر الأنوار وإنقاذ الفكرة الأساسية فيه: أي شمولية القيم وخصوصيات الإنسان أينما وجد. ويعتقد تودوروف أنه يمكن للمفكرين الفرنسيين الطليعيين أن يخرجوا من الدهاليز المظلمة للعدمية، ويستعيدوا الثقة بما أنتجته قرائح أسلافهم في عصر الأنوار.

يمكن القول انطلاقا مما تقدم، أنه لم يعد صوت الذات (الباحث/ العالم) مستبعدا بحجة الموضوعية كما في المرحلة البنيوية، بل أصبح مسموعا، لا يكتفي بالوصف، بل يفسر ويؤول ويفاوض النص، وذلك من موقع إنسانوي ينخرط بموجبه الباحث في سياسات الحاضر ومشكلات التاريخ، محملا بالقيم الإنسانوية، عبر استراتيجية حوار ثقافي بحثا عن الحقيقة، متبنيا ما يمكن أن نسميه بالتأويل الحواري «لقد أردت تجنب تطرفين: الأول هو إغراء سماع صوت هذه الشخصيات على نحو ما هو عليه، إغراء السعي إلى أن أختفي أنا أيضا حتى أخدم صوت الآخر على نحو أفضل. والثاني هو إغراء إخضاع الآخرين لنفسي، إغراء جعلهم مجرد دمى يسيطر المرء على جميع خيوط تحريكها. وقد بحثت بين التطرفين ليس عن

ساحة حل وسط، بل عن طريق الحوار. إنني أسأل هذه النصوص وأبدل مواقعها وأقوم بتأويلها، لكنني أيضا أدعها تتكلم (من هنا كل هذه الاستشهادات) وتدافع عن نفسها... لم تتكلم هذه الشخصيات بنفس اللغة التي أتكلم بها. لكننا لا ندع الآخر يحيا بمجرد تركه على حاله، كما أننا لا نتوصل إلى ذلك بطمس صوته الكامل. لقد حاولت رؤيتهم، قريبين وبعيدين في آن واحد، كما لو كانوا يشكلون أحد المتحاورين في حوارنا»[36].

إن الاهتمام بقضايا التمثيل والغيرية الثقافية وصور الآخر شكل منعطفا ثقافيا جديدا، يستند فيه "تودوروف" إلى التاريخ وتحليل الخطاب والاستراتيجيات التي ينتج بها معناه، من أجل تمثل إيديولوجية العصر، وذلك في إطار رهان تنويري يسعى إلى المساهمة في فهم مشاكل الحاضر، في سياق مشروع تاريخي يؤكد على أهمية الوعي التاريخي في الممارسة النظرية: «لكن مشروعي تاريخي: إني أهتم بتطور المكان الذي نعطيه للآخر منذ النهضة، ...ثم إنني فوق ذلك أحاول أن أتوجه إلى من يعاصرونني...أسعى إلى التحدث مع المعاصرين لي عن المشاكل التي تهمنا جميعا، كمسألة التسامح وكراهية الأجانب والاستعمار، والتواصل، وتقبل الآخر والاتحاد معه... »[37].

بهذا الوعي التاريخي يقطع تودوروف المسافة من جماليات السرد إلى سياسات التمثيل وبناء الآخر، ومن الشعرية إلى تاريخ الأفكار والدراسات الثقافية والأنثروبولوجية.

الهوامـــــش

1)تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، فتح أمريكا، مسألة الآخر، تر: بشير السباعي، مراجعة فريال غزول، دار سينا، القاهرة– مصر، ط1، 1992م. وفيه حلل أهم مدونات الأرشيف الاستعماري الإسباني، وهو المعروف بـ"الأرشيف الهندي"، وفكك ببراعة تلك المدونات التي صورت عمليات الغزو، والإبادة، والاستيطان، ومنها "اليوميات" لكولومبس الذي قاد عملية الفتح.

وفي هذا الإطار، يعد الكتاب السابق عملا رئيسيا في مجال تحليل الخطاب، ويتناول بشكل مباشر وظيفة وقوة الكتابة في الوضع الكولونيالي. وتكمن رؤية الكتاب الثورية في تحديده موقع الملمح الأساسي للاضطهاد الكولونيالي عند السيطرة على وسائل الاتصال، وليس السيطرة على الحياة والممتلكات أو حتى اللغة نفسها.

2)تزفيتان تودوروف، نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، تر: ربى حمود، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1، 1998م.

3)تسمية "فكر الاختلاف" شائعة في الأدبيات الفلسفية الراهنة، ولعل أبرز من يمثله: نيتشه، وهايدجر، وفوكو، ودريدا، وجيل دلوز، وتعود أصوله القوية إلى "فكر الأنوار" في مجمله.

4) تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص 9.

5) المرجع نفسه، ص 10.

6) نفسه، ص 179 وما بعدها.

7) نفسه، ص 231 وما بعدها.

8)نفسه، ص 163 وما بعدها .

9) نفسه، ص 6.

10) قولة لتودوروف في صفحة الغلاف.

11) تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص 76.

12)نفسه، ص ص 76–77.

13) المرجع نفسه، ص 98.

14) نفسه، ص 106.

15) نفسه، ص 21.

16) نفسه، ص 69.

17) نفسه، ص ص 70–76.

18) نفسه، ص 121.

19) نفسه، ص 125.

20) نفسه، ص ص 127–128.

21) نفسه، ص 197.

22)نفسه، الصفحة نفسها.

23)نفسه، ص 112.

24)أي تتجاوز اللغة المنطوقة أو المكتوبة لتكون كل أنظمة العلامات التي تشكل نسيج التبادل والعلاقات في مجموعة إنسانية ما، فمنها الطقوس، ومنها الأبنية الاقتصادية، ومنها الأنساق الاجتماعية، ومنها الفنون والآداب...إلخ.

25) تزفيتان تودوروف: نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص ص 11-12.

26) المرجع نفسه، ص 9 .

27)نفسه، ص 17.

28) نفسه، ص 134.

29) نفسه، ص 123.

30) نفسه، ص 224.

31) نفسه، ص 229.

32)نفسه، ص 90.

33)نفسه، ص 98 وما بعدها .

34)نفسه، ص 431.

35) نفسه، ص 427 وما بعدها .

36) تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص 262.

37) تزفيتان تودوروف، الشعرية، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 1990م، ص 19.